

جريمتهم انهم أبرياء

بقلم الصحفي سمير قصير

جريدة النهار ١٨/٨/٢٠٠٠

آخر موضة في البلد: مارسُ السلطة وتربّع فيها سنوات واعمل العمائل، ثم ترفّع عن الطمي الذي تكون قد أهدقته على العباد.

آخر نكتة في البلد: المسؤول اللامسؤول "تري، من أين جاء هذا القرف؟"، يقول الاول، فيردف الثاني: "سأحرّك القضاء"، وينوح ثالث: "انا نادم، والله نادم"، قبل ان يصيحوا جميعا، ومعهم الحكم والحكومة والاهل والاقارب: "لن نعيدها. سنكون صالحين، صدقونا!".

يلزم الكثير حتى يصدق أحد ان وراء دموع التماسيح صهوة للضمير، وقد اعتادوه مضمرا او مجهولا وفي أي حال منفصلا عن ذواتهم.

يلزم أكثر من النفاؤل لتصديقهم. العمى ربما.

العمى هو تحديدا ما يسعون اليه. هم ليسوا ابرياء؟ حسناً، سيلطخون الجميع، فلن يكون أحد أحسن من أحد. هذا اقتطعت له اكبر امارة انتخابية بدمج محافظتين، ولكنه هو من يشكو الآن من التقسيم الانتخابي. ذاك يتحكم بكل شاردة وواردة داخل الجمهورية، ولكن خصومه هم من ينزعون الصور الانتخابية. وهلم جراً.

كفى مزاح. ليس كل المرشحين متساوين. معظمهم للفولكلور، صحيح، ولكن هناك أقليتان بين جمهرة الصور تستحقان معاملة مختلفة. أقلية المرشحين الذين يتسلحون بحس المسؤولية وبعده أدنى من الافكار والبرامج. لا حاجة الى تسميتهم مرة اخرى، فكل مواطن في دائرته يعرفهم. ومن لا يعرف، فلينظر الى الاقلية الاخرى، أقلية "الابرياء الجدد". تريدون التغيير: انظروا في كل دائرة الى كل من يقف جدياً في وجه المسؤول اللامسؤول واقترحوا لمصلحته.

لا حل آخر. فاذا صدق اللامسؤولون في ان المشهد الانتخابي صار كناية عن "عصفورية"، لا عودة الى الصواب الا باقصاء من جنّوا الناس ثم راحوا يبشرون بالرشد. هكذا على الاقل، يعطي المواطن معنى لانتخابات أروها بلا معنى، حسب شعار شبابي حكيم.

ولكن هل صحيح ان الموسم الانتخابي بلغ حد "العصفورية"؟ لا شك في ان هناك فلتانا، وانما ليس بالمعنى الذي يقصده المسؤولون الابرياء. انه "فلتان أمني"، اذا جاز التعبير، أجهزة تضرب ببعضها البعض، مصالح سلطوية تتعارض، هيمنة تتشظى.

تلك هي في العمق المسألة التي يكشفها كرنفال العفة الرسمية. لم تعد ارادة واحدة تحكم البلد، وإن من خلف الستائر. طبعاً، قد يكون من المبكر الخلوص الى ان اليد التي كانت تسيّر بها سوريا السياسة اللبنانية صارت أيادي. وقد لا يكون لما شاع عن اعادة الملف اللبناني الى السيد عبد الحليم خدام علاقة بما يجري. لكنه صار جلياً ان السياسة السورية في لبنان دخلت، ربما دون قصد، مرحلة "تجريبية" جديدة، حتى لا نقول انتقالية. ولعل السؤال الذي يستتبع هذه الخلاصة هو: هل تستمر هذه "التجريبية" بعد الانتخابات؟ ذلك بأنه يبقى واردا ان تكون دمشق قررت بسبب انشغال حكامها (الجدد مثل القدم) في أمور ما بعد الخلافة، ترك الامور تأخذ مجراها في لبنان، على ان تستعيد زمام القرار بعد جلاء صورة التوازنات الداخلية، السياسية و"الامنية".

غير انه حتى هذا الاحتمال لا يفقد هدف اعطاء الانتخابات معنى أهميته. على العكس تماماً، فسواء أكانت سوريا راغبة في الفلتان الراهن أم كانت تتحمله مكرهة، فانها ستضطر الى التعامل مع وضع جديد بعد الانتخابات. ولعل المعنى الاكبر الذي يمكن اعطاؤه للانتخابات هو ان تخرج بوضع جديد. وضع يُقضى منه من جعلوا حتى من البراءة جريمة.